شبلي العيسمي



الإسلام

ثَورةُ العُروبَة وثَروَتُها



الطليعة العربية في تونس

منشورات

1987

الإسـلام
ثورة العروبة وثروتها

شبلي العيسمي
بغداد - 1985

مفهوم الثورة بمعناها العام وفي الإسلام:

☐ المفهوم العام للثورة:

نظراً لأهمية تحديد المفهوم الذي نعنيه من الثورة عندما نتحدث عنها، وبما أنه ليس لها تعريف جامع مانع كما يقال، فإننا نحدد ما نفهمه منها على النحو التالي: إنها العمل الشعبي الذي يؤدي إلى التغيير الجذري والشامل لجميع نواحي الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، بأسلوب غير عادي لا يعتمد على التطور البطيء والإصلاحات الجزئية. ولكن الكثيرين يفهمونها متلازمة مع التطرف والعنف والتشدد في المبادىء. ولئن كان فيها شيء قليل من هذه المعاني، فإن الخطأ الشائع أنها ضد المرونة والتكتيك مع **أن الثورة في جوهرها تعتمد على أفضل الوسائل العملية والعلمية لتحقيق الأهداف الضخمة المرسومة، مع الأخذ بمبدأ المرونة والتكتيك ومراعاة الواقع ومقتضيات الظروف شريطة ألا يكون على حساب المبادىء والأهداف الاستراتيجية**، وشريطة أن يبقى الفرق واضحاً والحدود ظاهرة بينه وبين المرونة والانتهازية. ومع أن الحماسة وبروز الاستعداد للتضحية والقبول بحد معين من المغامرة والاندفاع العاطفي من علائم الروح الثورية فإن اعتماد العقلانية والعلم والدراسة من الأسس الضرورية لها دون أن تصبح عامل لجم وتقييد لانطلاقها.

واستكمالاً لمفهوم الثورة، لا بد من التوكيد على جانب مهم من مفاهيمها وهو الجانب الأخلاقي الذي يحقق مصداقية القول والعمل في سلوك المناضلين ولدى القياديين منهم على وجه الخصوص. ولقد اتضح بالتجربة أن الثبات والمثابرة، وعدم

التفريط بالمبادىء ومتانة العقيدة، لا تظهر إلا في المدى الطويل، وعند الشدة وأمام المغريات المتعددة التي توفرها السلطة وظروف الحياة المحيطة بهم. ومن هنا نستطيع القول ليس كالمواقف العملية والملموسة ما يؤكد هذه المصداقية للمواطن العادي وبحيث تحمله على منح ثقته والاستجابة لنداء التضحية والفداء، وهذه الحقيقة ترقى إلى مستوى القانون العام في السياسة. وبعبارة موجزة إن الثورية ليست حماسة ومثالية وتطرفاً، وليست كذلك انتهازية وتذبذباً يغلفان بالمرونة **والتكتيك، وإنما هي وعي للمبادىء والأهداف، ولأفضل الوسائل العملية والعلمية المؤدية لتحقيقها، مع الإيمان بضرورة التضحية من أجلها والشعور بالمسؤولية التاريخية حيالها إلى جانب الالتزام بالقيم الأخلاقية في العمل والنضال.**

وكل ثورة تظهر في مجتمع معين ولو كان صغيراً، وتستطيع أن تعبر بصدق وعمق عن مبادىء الحرية والعدل ومناهضة الظلم والاستغلال، فإنها تعبر في الوقت نفسه عن كل الحالات المماثلة في المجتمعات الأخرى، ذلك لأن مشكلات الإنسان وحاجاته وتطلعاته الأساسية للحق والعدل والمساواة تظل واحدة أو متقاربة في كل زمان ومكان.

إن ثورية الإسلام لم تظهر في مقاومة الشرك والدعوة إلى الوحدانية، وتوحيد العرب، ومقاومة العصبية القبلية والعادات السيئة فحسب، وإنما ظهرت كذلك على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي في الدعوة الصريحة إلى العدل والمساواة وإلغاء التمييز العنصري والظلم والاستغلال والاستكبار مع الاهتمام بالفقراء والمستضعفين وإنصافهم ورفع مستواهم. هذا بالإضافة إلى التوكيد على القيم الإنسانية الإيجابية كالمحبة والتعاون والإخاء والصدق. . ولعل أبرز معالم الثورية في الإسلام تظهر في فهمه العميق لواقع المجتمع العربي ومعالجة مشكلاته وتطلعاته بحكمة ومرونة وواقعية، وبصبر وثبات ومثابرة، وباستخدام الوسائل الممكنة والناجعة من مسايرة وتساهل تارة، ومن تشدد وحزم تارة أخرى، فبشر المؤمنين بالجنة وحسن الثواب، وأنذر الكافرين والمنافقين بالنار وسوء العقاب، وذلك بأسلوب بليغ شديد التأثير في مجتمع ذلك العصر لما فيه من الفصاحة والبيان وجمال اللغة العربية وسحرها ﴿فإن من البيان لسحراً﴾. **والمهم أن الرسول العربي لم يخاطبهم بما يتعذر فهمه ويعسر هضمه. ولم يحقق أهداف الإسلام ومبادئه دفعة واحدة، وإنما بالتدريج خطوة خطوة**

على مدى **ثلاثة وعشرين عاماً**، كان يخاطب فيها القلوب ويستثير المشاعر ويحض على التأمل والتفكير واستخدام العقل والمنطق، واستلهام التراث والاتعاظ بالأحداث. وكان مثلاً رائعاً في الايمان بالعقيدة والتفاني من أجلها، وفي تجسيد القيم الأخلاقية، وكما ورد في القرآن الكريم ﴿ وانك لعلىٰ خلق عظيم ﴾ (سورة القلم: الآية ٤).

□ أمثلة عن مفاهيم الثورة في الإسلام:

ولعله من المفيد من باب التوضيح لهذا الذي نقوله، أن نشير ولو بشكل عابر وعلى سبيل المثال لا الحصر إلى بعض المواقف والأعمال التي تجلت فيها الثورية بجوهرها وفق المفاهيم المذكورة.

١ ــ ففي ما يتصل بالحكمة والمرونة وتحقيق المبادىء بالتدريج ومن منطلق الفهم الدقيق لواقع المجتمع الذي يتم التعامل معه، نلاحظ أن بعض العادات والأوضاع السلبية التي كانت متجذرة ومنتشرة في المجتمع الجاهلي، كالربا والخمر والعصبية القبلية **وما رافقها من غزو وثأر لم تحارب بحدة وانفعال، وإنما بالتدريج وعلى مراحل، وبالتوجيه المستمر الدؤوب وبالحجة والمنطق وبالقدوة الحسنة والمصداقية وبحسن الإفادة من الظروف** على مدى السنوات الطويلة منذ بداية الدعوة وحتى نهايتها. ومن المعروف أن بعضها لم يحرم بشكل نهائي وحاسم إلا في نهاية الدعوة، أي في حجة الوداع التي خطب فيها الرسول وقال: «إنما المسلمون إخوة ولا يحل لامرىء مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه. ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.. إن الله قد حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة شهركم هذا.. ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وأول دمائكم أضع دم أياس بن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد بن ليث، فقتلته هذيل»[1].

هذا ومن المفيد أن نشير هنا أيضاً إلى ما ورد في تفسير الجلالين للآية **٥٣** من سورة الزمر لما يبرز في هذه الرواية من المرونة والتسامح والتيسير، وهي تقدم لنا مع

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام، ص ٣٢٥، وما بعدها ثم المغازي للواقدي، الجزء الثالث، صفحة ١١٠٣ وما بعدها.

الأمثلة الاخرى أصدق العبر وأعمق الدروس التي نحن أحوج ما نكون لوعيها واستيعابها في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ النضال العربي: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي قاتل عمه حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه، كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو زنى أو أشرك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً، وأنا صنعت ذلك، فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ . فقال وحشي هذا شرط شديد ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل الله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فقال وحشي : هذا بعد مشيئة فلا أدري أيغفر لي أم لا . فهل غير هذا ، فأنزل الله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم﴾ قال وحشي: هذا نعم، فأسلم»[1]، ولئن كان في هذه الرواية ما يدعو إلى الشك من حيث نزول هذه الآيات كلها لإقناع وحشي وهي من سور مختلفة ومتباعدة في نزولها، فإنها تظل في مغزاها مؤشراً على أن الإسلام دين التسامح والتيسير، ذلك لأن الآيات الأخيرة منها تؤيد هذا المنحى، كما يؤكده أيضاً قوله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ (البقرة ١٨٥). ومهما يكن من أمر فإن التصرفات الحكيمة للرسول (ص) وخبرته العظيمة بنفسية الأفراد والمجتمع جعلته يتعامل معهم كتعامل الطبيب الماهر الذي لا يقدم لمرضاه إلا الدواء الملائم للشفاء أو كالأب الحنون المجرب لا يقدم لأي من أبنائه إلا ما يلائم سنه وتستطيع معدته تمثله وهضمه.

(١) تفسير الجلالين، صفحة ٦١٤؛ وورد في تفسير القرطبي ٢٦٨/٥؛ وتفسير الزمخشري ٣٠/٣؛ وتفسير البغوي ٢٥٣/٧، أنها نزلت في وحشي لأنه ظن أن الله لا يقبل الإسلام منه. نظراً إلى أن بعض الآيات كان ينزل جواباً عن سؤال أو حلاً لمشكلة واستناداً إلى تحقيق قدمه لنا الأستاذ محمود شيت خطاب حول أسباب نزول الآية ٥٣ من سورة الزمر، فإنني أرجح ما يلي:

من المحتمل أن يكون من اتصل بالمسلمين بوحشي بعد غزوة أحد لإقناعه بالدخول في الإسلام، قد عرض عليه الآيتين المكيتين المشار إليهما من دون أن تكونا قد نزلتا بمناسبة إقناعه، في حين أن الآية الأخيرة وهي مدنية ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا . إلى آخر الآية ﴾ قد نزلت بعد هذا الحوار. ومهما يكن من أمر فإن أكثر المفسرين وأشهرهم كالقرطبي والزمخشري والبغوي وابن كثير قد ذكروا أنها نزلت لتشجيع من كان من المشركين يخشى ألا يغفر الإسلام لهم ذنوبهم لكثرتها، إذا ما دخلوا فيه، فنزلت هذه الآية لإقناعهم بأن الإسلام دين التسامح والتيسير وأن الله يغفر لهم ذنوبهم إذا تابوا مهما كانت كبيرة.

٢ ــ خرج الرسول والمسلمون وبعض العرب من غير المسلمين إلى العمرة في السنة السادسة للهجرة، أي (بزيارة سلمية للبيت تعظيماً لحرمته)، وإذ لم يتمكنوا من أدائها لمعارضة قريش على دخولهم مكة، جرت المفاوضات بين الفريقين وانتهت إلى صلح الحديبية الذي نص على إقامة الهدنة لعشر سنين «وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم ترده» وأن يرجع المسلمون من غير عمرة. ويأتون في العام التالي «والسيوف في القرب». لقد رأت أكثرية المسلمين غضاضة وحيفاً في هذا الصلح، وأعرب بعضهم عن امتعاضه علناً ومن بينهم عمر بن الخطاب الذي «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبده ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»[1]. وفي طريق العودة إلى المدينة نزلت سورة الفتح ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما﴾ (الفتح: ١ و ٢).

ولقد أثبتت الحوادث اللاحقة لهذا الصلح حكمة الرسول وبعد نظره في جنوحه للسلم مع أهل مكة وابتعاده عن تعقيد الأمور معهم، وفي تفرغه لنشر الإسلام وترسيخه، وظهر أن التنازلات التي كانت في نظر الأكثرية كبيرة ومجحفة، لم تكن في حقيقة الأمر سوى تنازلات جزئية وبسيطة بالقياس إلى النتائج الإيجابية والمكاسب الضخمة التي حققها المسلمون بعد هذا الصلح. ولقد أشار الزهري إلى ذلك بقوله: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه». ويعلق ابن هشام، قائلاً: «والدليل على ذلك هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[2] **وفي هذا المثال تبرز أمامنا الصفات القيادية الرائعة في الحكمة والمرونة وبعد النظر، إلى جانب الحزم والصبر وسعة الصدر تجاه المعترضين.**

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، صفحة ٢٢٦ ثم صفحة ٢٢٧.
(٢) المصدر السابق، صفحة ٢٢٩.

٣ ــ لقد آمن المسلمون بنبوة الرسول وعبقريته، وكان باستطاعته أن يستفيد من هذا الإيمان ليفرض عليهم رأيه وقناعته، ويريح نفسه من المعارضة وما قد تجلبه من جدل وتعب للأعصاب وإضاعة للوقت، **ولكنه مع ذلك أبى التفرد وآثر الأسلوب الديمقراطي وهو المتعب والأصعب، لأنه الأسلم والأصوب. وقدم مثلاً حياً على الممارسة الديمقراطية الممتزجة بالمحبة والتواضع والثقة بالنفس،** فحرص على احترام أصحابه والاهتمام بآرائهم وحسن الإصغاء إليهم واستشارتهم والأخذ بما يراه صائباً ومفيداً من مقترحاتهم، بل لم يجد ضيراً في التراجع عن رأيه وقناعته إذا ما شعر بالحساسية وبشيء من عدم الرضا لديهم، ونظرته الثاقبة هدته إلى أن هذا الأسلوب الديمقراطي هو الذي يضمن استقطاب المسلمين وشدهم إليه، وينمي الثقة ويذكي الحماسة ويعمق الإيمان في النفوس. وبما أن كتب القدماء والسيرة حافلة بالأمثلة على ذلك ويمكن الرجوع إليها؛ ورغبة منا في عدم الاستطراد فيها، **فإننا نكتفي هنا بإيراد مثال واحد نأخذه من غزوة الخندق.**

٤ ــ ففي العام الخامس للهجرة حشدت قريش مع بعض القبائل العربية أعداداً كبيرة لتوجه ضربة حاسمة للمسلمين. فاجتمع هؤلاء وعلى رأسهم النبي يتداولون الرأي فيما يجب أن يعملوه لمواجهة هذا الخطر الكبير، «وكان الرسول يكثر مشاورتهم في الحرب». وبعد أخذ ورد اقترح سلمان الفارسي حفر خندق في الجهة التي يتوقعون منها الهجوم، **فاستصوب الرسول هذا الاقتراح وأمر بتنفيذه، وشارك بنفسه في أعمال الحفر والحراسة الليلية في القر الشديد كأي فرد من المسلمين.**

وفي أثناء الحصار جاءه عمر قائلاً: «يا رسول الله، بلغني أن بني قريظة (اليهود) قد نقضت العهد وحاربت» فاشتد ذلك على الرسول وشاور أصحابه فيمن يصلح لتقصي الخبر فرأوا أن يكون الزبير بن العوام ففعل، وعاد مؤكداً صحة الخبر. **وبعد التداول بالأمر من جديد كلف ثلاثة من قادة المدينة لإقناع بني قريظة بالبقاء على العهد مع المسلمين فأبوا.**

وبعد فترة من الحصار «اجتمعت بنو حارثة وقالوا: يا رسول الله إن بيوتنا عورة. فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا. فأذن لهم. وبينما هم يتأهبون للإنصراف، **أتى سعد بن معاذ إلى رسول الله وناقشه في المحاذير التي تنجم عن**

هذا الأمر، فاقتنع الرسول بما أبداه سعد وتراجع عن رأيه ولم يسمح لبني حارثة بالعودة.

وعندما اشتدت الكربة والتذمر من شدة الحصار، أمر الرسول أن يعطي عيينة بن حصن والحارث بن عوف «ثلث تمر المدينة لكي يرجعا بمن معهما ويُخذّلان بين الأعراب» فلما علم أسيد بن حضير بهذا الاتفاق المبدئي «أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف. ثم دعا الرسول سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، **فاستشارهما في ذلك، وقال**: «إني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم. فقالا: يا رسول الله.. إن كان أمراً من السماء فامض به.. وإن كان إنما هو الرأي فما عندنا إلا السيف.. ما طمعوا بهذا منا قط أن يأخذوا تمرة إلا بِشرى أو قِرى» **ثم تراجع الرسول عن موقفه**.

وعندما أسلم نعيم بن مسعود ولم يخبر قومه بذلك، أتى إلى رسول الله قائلاً: «مرني بما شئت يا رسول الله» وبما أن الرسول اعتبر الحرب خدعة «وعانى مما يعانيه المسلمون من الشدة والضيق بعد أن طال عليهم الحصار، فقد أراد أن يستفيد من إسلامه المكتوم، فقال له: «ما استطعت أن تُخذّل الناس فخذّل» **فامتثل وطلب أن يؤذن له بعمل ما يراه مناسباً. فقال له الرسول: «قل ما بدا لك فأنت في حل»**، وبالفعل فقد استطاع أن يقنع بني قريظة بأن يطلبوا رهائن من قريش وغطفان حتى لا يتخلوا عنهم. بينما قال لهما أن بني قريظة يريدون رهائن منكم لتسليمها إلى محمد، أخذت الوقيعة مداها وأسهمت مع عوامل أخرى بفك الحصار وعودة مشركي قريش لى مكة[1].

بالإضافة إلى كل ما تقدم، فإن أمثلة أخرى كثيرة عن سيرة الرسول والخلفاء الراشدين سترد في الفصول التالية. وفيها نجد الكثير من الصفات والشروط الثورية التي تحدثنا عنها في هذه الفقرة.

---

(١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام عن غزوة الخندق، من صفحة ١٨٨ إلى صفحة ١٩٨؛ والمغازي للواقدي، الجزء الثاني، صفحة ٤٤٠ إلى ص ٤٩٣.

ثورية الإسلام في تحقيق الوحدة الروحية والسياسية للعرب:

□ **الوحدة أعظم ما قدمه الإسلام للعرب:**

لقد بينّا فيما مضى أن الإسلام كان امتداداً طبيعياً للعروبة، نبت في أرضها وترعرع في أحضانها، وأفصح عن تطلعاتها وعبر عن آلامها وآمالها، وأن ملحمة الإسلام العظيمة كانت عربية في بطلها وقادتها ولغتها ومسرحها وفي جوهرها وروحها. وقلنا ان هذا الامتداد لم يسلك طريق الاصلاحات الجزئية والتطور العادي البطيء، بل كان ثورياً بأسلوبه، وأهدافه، ومراميه، ولقد تجسدت هذه الثورية على أروع وأوضح ما يكون التجسيد في تحقيقه الوحدة الروحية والسياسية للعرب بحيث انطلقت مواهبهم من عقالها، وتفجرت طاقاتهم على طريق العطاء والبناء. وبفضل ذلك تعززت مكانتهم وازدهرت حضارتهم وانطلقت بالإشعاع والتأثير الإيجابي على الشعوب الأخرى. وهكذا فإن ثورية الإسلام بتحقيقها الوحدة العربية قد أنتجت للعرب حضارة ضخمة تجلت فيما ظهر لديهم من المواهب والكفاءات والتقدم في شتى الميادين الفكرية والسياسية والعسكرية والإدارية والاجتماعية، وغدت هذه الحضارة ثروة يعتز بها العرب ويفتخرون على مر العصور، ولم تقتصر على النواحي الإيجابية المذكورة وإنما استمر الإسلام ثروة للعرب حينما غدا الحصن الذي حماهم من التفتت والضياع في فترات الضعف والتخلف، وحافظ على لغتهم وهويتهم الثقافية والقومية في ظروف الهيمنة الأجنبية والاستعمارية. **وبعبارة واحدة كان الإسلام ثورة العروبة وثروتها لأنه انبثق من العرب وانتصر بهم وجلب لهم الخير والتقدم والمجد.** ولعلنا نوضح ذلك فيما يلي:

١ ـ كانت عقيدة الشرك وكثرة الأوثان والأصنام، إلى جانب المعتقدات الدينية الأخرى المتعددة، تعبيراً عن التشتت والتمزق الفكري والروحي بين العرب، فجاء الإسلام وحاربها، وأفلح في القضاء عليها، وإحلال عقيدة التوحيد محلها، **وكانت هذه العقيدة المنطلق الأول والأساس في تحقيق وحدة العرب الفكرية والروحية ومن ثم تحقيق وحدتهم السياسية، وجاءت هذه وليدة تلك أو نتيجة لها. وفي عقيدة التوحيد وتحقيق الوحدة تبرز معجزة الإسلام الكبرى.** وبين التوحيد والوحدة علاقة وثيقة ليست محصورة بالمبنى وإنما تشمل المضمون والمعنى.

وإذا ما لاحظنا أن النهضات التاريخية ذات الأثر الكبير في تاريخ الإنسانية،

هي تلك التي تنطلق أولاً وقبل كل شيء من وحدة الفكر والعقيدة، سواء أكانت سياسية أم دينية أم مزيجاً من كلتيهما، لأدركنا الدور الكبير الذي قام به الإسلام في شد العرب واستقطابهم حول هذه العقيدة الروحية، وما كان لها من تأثير فعال في تفجير طاقاتهم الكامنة واستغلال مواهبهم وإمكاناتهم التي كانت ضائعة ومهدورة بسبب من الانقسام والتمزق والصراعات القبلية.

٢ ـ صحيح إن القبائل العربية في جزيرة العرب كانت تشعر بعروبتها في الجاهلية، أي بهويتها العربية، من خلال اللغة الواحدة والثقافة المشتركة والتقاليد المتشابهة، ولكن العصبية القبلية السائدة وما رافقها من منازعات وصراعات حالت دون تحقيق الوحدة السياسية التي تجعل القبيلة مندمجة في ظل الأمة الواحدة، حتى إذا ما أتى الإسلام استطاع توحيدهم وسار بهم باتجاه تقدمي صاعد. ولقد ورد في القرآن الكريم ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ (آل عمران: ١٠٣) وورد أيضاً: ﴿وأن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣). إن سياق الكلام يشير إلى أن المخاطبين هم العرب، ويشير إلى فضل الإسلام في توحيدهم وجمع كلمتهم، مع إضفاء الصفة الرسالية والسماوية على هذه المسألة بالإضافة إلى التنويه بدور المؤمنين العرب في تأييد الرسول ونصره.

٣ ـ والوحدة التي حققها الإسلام للعرب لم تكن سطحية وآنية، بل جذرية وقوية لأنها بنيت على عقيدة دينية تملكت عقل الإنسان العربي ومشاعره وعززها الإيمان بأن هذه العقيدة الجديدة كلها حق وخير وعدل، وكان من الطبيعي أن يظهر لدى العرب في صدر الإسلام وفي ظل هذه الوحدة، الزخم العظيم والاندفاع الشديد والتضحيات الجسيمة والبطولات الرائعة لحماية الرسالة الجديدة وحملها إلى شعوب العالم. لقد انطلقوا من أجلها في كل الاتجاهات واندفعوا في سبيلها كالسيل الجارف نحو الامبراطوريتين الفارسية والرومانية المجاورتين، فقوضوا دعائمهما بسرعة لم تكن متوقعة، واحتوى المد العربي الجديد معظم القوى والشعوب التي وصل إليها وترك آثاره وبصماته فيها، ثم حمل العرب في العصور الوسطى مشعل النور والتقدم يوم كانت شعوب أوروبا تغط في سبات عميق وجهل مطبق، وتعيش في أسوأ حالات الجمود والتخلف، وتمكنوا من المساهمة الجدية في تجديد القيم والمبادىء الإنسانية،

وإضافة لبنات مهمة في صرح الحضارة البشرية. ولا بد هنا من الاشارة إلى أن العرب المسلمين الأوائل لم يتقيدوا بحرفية النصوص والمواقف السابقة، بل كانوا يفهمون الإسلام فهمًا حيا معتمداً على العقل والانفتاح والتطور، **فلم يتقوقعوا على أنفسهم ولم يتعصبوا ضد أفكار وعلوم المجتمعات والشعوب العديدة التي اختلطوا بها، وإنما انفتحوا عليها وانطلقوا نحو الاحتكاك بها والتفاعل مع حضارتها، واطلعوا عليها واستفادوا منها، وترجموا الكثير من التراث العلمي والأدبي** لليونان والرومان والفرس والهنود ونقلوه إلى العربية فساعدهم ذلك على تحقيق المزيد من الإبداع والإنتاج في مضمار التقدم والحضارة. وما أحوجنا نحن العرب في هذا العصر لمثل هذه الروح من الانفتاح والثقة بالنفس، لكي نندفع للاستفادة من الحضارة الغربية المتطورة، بعيداً عن الخوف والعقد ومن دون أن نخلط بين الغربيين كحكام يسعون للاستعمار والهيمنة والاستغلال وبين ما لديهم من تقدم هائل في العلم والتكنولوجيا.

وخلاصة القول **إن ما تحقق للعرب بفضل الإسلام كان ثورة ونصراً كبيراً لهم، وتعزيزاً لوجودهم وإبرازاً لدورهم وتمهيداً لبلورة رسالتهم ونشر حضارتهم.** وإن المقياس الذي لا يخطىء في تقويم ما تحقق هو ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وسعة انتشارها وتفاعلها، مع الحضارات القديمة والمعاصرة لها، واكتسابها المزيد من العمق والنضج والقدرة على الإبداع والإشعاع.

□ كيف حارب الإسلام العصبية القبلية:

بما أن العصبيات القبلية كانت أكبر عقبة وقفت في طريق الوحدة الفكرية والسياسية التي حققها الإسلام للعرب، فلا بد لنا من وقفة عندها نستطلع فيها الوسائل والأساليب العقلانية والثورية التي اتبعها في تجاوز هذه العقبة والتغلب عليها، لما في ذلك من دروس تفيدنا في معالجة ما نعانيه في الوقت الحاضر من تفتت وانقسام ومناحرات تذكرنا بما كان عليه العرب في الجاهلية. لقد أدرك الرسول بعبقريته الفذة عمق العصبية القبلية وتأثيرها الكبير في الحياة الاجتماعية للعرب، فاضطر للتعامل معها أو مسايرتها والاستفادة منها أول الأمر، **مع العمل على محاربتها والتخلص منها بالتدريج وفق صيغ وأساليب متعددة فيها الكثير من الحكمة والمرونة، وذلك على النحو التالي:**

١ ــ سأل وائل بن الأسفع رسول الله قائلاً: «أمن العصبية أن يحب الرجل

قومه؟ فيجيبه الرسول: لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم»[1] وفي مناسبة أخرى، قال: «**إن خير القوم من كان مدافعاً عن قومه، ما لم يأثم فإن الإثم لا خير فيه**»[2]. ومن المعروف أيضاً **أن الرسول والصحابة لم يكونوا ضد اهتمام العرب بأنسابهم**. ويروي الترمذي: «ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم..» كما أخرج النسائي عنه قوله: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى الرحم ثنتان صدقة وصلة»[3] ولكنه قال أيضاً: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[4] ومهما يكن من أمر، فإن الإسلام قد سعى لتهذيب هذه العصبية وتشذيبها وتبديل مفهومها السلبي الضيق بمفهوم إنساني شامل وعادل، ويتجسد ذلك بوضوح في تفسير الرسول للتعبير الجاهلي المعروف «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما» إذ قال عندما سئل عنه «**ننصره إذا كان مظلوماً ونردعه عن الظلم إذا كان ظالماً**».

٢ ــ لم يكن من الحكمة ولا من المصلحة في شيء أن يتصدى الإسلام للعصبية القبلية منذالبداية، وأن يدخل معها في معركة صريحة ومكشوفة، وهي على ما كانت عليه من العمق والشمول في حياة العرب، ولهذا لا نجد آيات في القرآن الكريم **تركز على محاربة هذه العصبية بشكل مباشر، بل آيات تحث على التمسك** بالرابطة الدينية الجديدة بآفاقها الإسلامية الإنسانية، كبديل لتلك الروابط القبلية المؤذية. **أي أن المحاربة لم تكن سلبية، مباشرة بل بصيغ إيجابية** وباتجاه التأكيد على أن كل البشر من آدم وآدم من تراب، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.. ومن الصيغ الإيجابية أيضاً ما سبق أن أشرنا إليه عن المؤاخاة بين المسلمين ومضمون الصحيفة، والتوكيد على أن «المؤمنين أخوة» وأن المسلم أخ المسلم، مع التركيز على مبادىء العدل والمساواة بعيداً عن عصبية الجاهلية وتقاليدها. هذا فضلاً عن أن أعداداً كبيرة من العرب المسلمين قد آمنوا عن قناعة وتقوى، بتعاليم الإسلام وتوجيهاته، وعمدوا إلى

---

(١) سنن ابن ماجة، الجزء الثاني، صفحة ١٣٠٢.

(٢) المغازي للواقدي، الجزء الثاني، صفحة ٧٨٢.

(٣) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير، المجلد ٧، ص ٣١٩ إلى ٣٢١.

(٤) المصدر السابق، صفحة ٣٦٠٢، أخرجه مسلم وأبو داود.

تطبيقها والتقيد بها فأدى ذلك بصورة طبيعية إلى التخلي عن التقاليد القبلية المنافية لتلك التعاليم والتوجيهات بين هؤلاء.

٣ ـ لقد اتبع الرسول أسلوباً آخر في محاربة القبلية يفضي لإحلال الرابطة الأسرية محل الرابطة القبلية حتى ليبدو أن الأسلوبين يسيران في خطين متعاكسين، أو بشكل دائرتين أولاهما أوسع من القبلية والثانية أضيق منها، ففي هذا الأسلوب الأخير **يتحول ولاء الفرد من الولاء لقبيلته الواسعة إلى الولاء لأسرته الضيقة**، وبرز ذلك في الآيات والأحاديث التالية: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله * فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم..﴾ (الأحزاب: ٥). أي أن تسميتهم يجب أن تكون بأسماء الآباء وليس بأسماء القبيلة أو العشيرة. وأما الآيات والسنة التي تحث على محبة الوالدين والإحسان إليهم وطاعتهم فكثيرة، وفي الحديث: «إن الله أذهب عنكم عُبَيّة (مفاخرة) الجاهلية وتفاخركم بالآباء». وقال: «إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» وقد عزز الإسلام هذا التوجيه بأن جعل الميراث في نطاق الأسرة وحدها أي وفق هذه التوصية. كما أن الرسول كان «يوجه لأخذ الدية بدلاً من القتل ثأراً»[1].

٤ ـ ومن الأساليب العملية الناجعة التي اتبعت في محاربة العصبية القبلية ما يبرز لنا في المثال التالي: روى الشيخان ما جرى في غزوة بني المصطلق عام ٦هـ «**أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين**. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دعوها إنها فتنة (أو مُنتِنَةٌ خبيثة)». وفي سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي تفاصيل أخرى حول هذا النزاع الذي كاد يؤدي إلى انفصام عرى الوحدة بين المسلمين، والدور الخبيث الذي قام به عبدالله بن أبـي سلول (أبرز المنافقين)، إذ قال: والله ما أَعُدُّنا وَجَلابيب قريش إلا كما قال الأَوَل: سمن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ولكن الرسول عالج هذه الفتنة بسرعة وحكمة عندما راح يهدىء المتطرفين الذين اقترحوا عليه قتل عبدالله بن أبـي ثم رفض رأيهم

---

(١) مغازي الواقدي، الجزء الثالث، صفحة ٩١٩.

قائلاً: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» ثم بينً للمسلمين خطر هذه العصبية ووصفها بما ينفر منها ويستوجب التخلي عنها. كما اتخذ أسلوباً عملياً أكثر فاعلية في إخماد هذه الفتنة، وذلك بأن أمر على الفور بالسير رغم أن الوقت غير مناسب. «ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك رسول الله (ص) ليشغل الناس بالحديث الذي كان بالأمس[1]. وهكذا، **فقد استخدم الرسول في تلك المناسبة عدة صيغ للتغلب على الفتنة القبلية. أولاً، التوجيه والتثقيف على مساوئها، وثانياً، الوقوف في وجه الانفعال والتطرف والعنف، وثالثاً، تبديل جو الفتنة وتحويل الأنظار والاهتمام بالرحيل وشواغله.**

٥ ــ **غير أن محاربة العصبية القبلية كانت تأخذ طابعاً أوضح وأشد كلما خطا المسلمون خطوة جديدة في بناء قوتهم وترسيخ وجودهم.** فبعد فتح مكة خاطب الرسول أهلها بقوله: «لا تثريب عليكم اليوم». وقال: «ألا كل دم ومال ومأثرة» (مفاخرة) في الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما. ألا وأن مكة محرمة بحرمة الله، لم تحل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد من بعدي»[2]. **ونلاحظ هنا أن المحاربة انصبت على ما يسيء من عادات الجاهلية كالثأر والمفاخرة، بينما أبقي على ما ليس في بقائه ضرر،** إذا لم نقل أنه كان مفيداً في شد قريش إلى الإسلام.

٦ ــ إن الظروف والتطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي استجدت بعد الفتوحات العربية الإسلامية، قد أسهمت بدورها في إضعاف هذه العصبية القبلية، **وذلك عن طريق التوزع والتشتت اللذين أصابا القبائل بالتحاقها في الجهاد واضطرار أعداد من كل قبيلة إلى الاستقرار في الأمصار البعيدة التي وصل** إليها الإسلام، وبخاصة في العراق والشام ومصر والمغرب. **كما أن الحياة الحضرية وما يرافقها من تقاليد جديدة في التعاون والاختلاط مع قبائل وشعوب متعددة إلى**

---

(١) سيرة ابن هشام، ص ٢١١؛ وكذلك المغازي للواقدي، الجزءان الأول والثاني.

(٢) تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، صفحة ٥٠.

جانب **التزاوج والسكن** مع أبنائها وتبادل المصالح وإياهم، قد جعل مسألة المحافظة على النسب وقرابة الدم أمراً صعباً ولا تستوجبه الحياة الجديدة.

٧ ــ إن نمو العصبية القومية العربية في مواجهة العصبية الفارسية أو الحركة الشعوبية التي بدأت تطل برأسها في عهد الأمويين واتسعت في عهد العباسيين، قد كان له هو الآخر دور في تقوية الرابطة القومية على حساب الرابطة القبلية. وبتعبير آخر: **إن اتساع رقعة الدولة والظروف الاجتماعية المستجدة قد عززت القومية العربية بحيث أمكن لها أن تمتص جانباً كبيراً من العصبية القبلية الضيقة، وما كان يرافقها من ثارات وتقاليد.**

□ دور المعتقدات الإسلامية في تثوير الطاقات البشرية:

لو أمعنا النظر في بعض المعتقدات التي طرحها الإسلام وأكد عليها، لوجدنا أنها اضطلعت بدور ثوري كبير في حياة العرب المسلمين، بما كان لها من أثر وتأثير في تثبيت الإيمان الراسخ في النفوس وتوفير الاستعداد للتضحية والبذل **إلى الحد الذي أصبح معه المؤمن بها يسترخص النفس والنفيس من أجلها،** ويقبل على الموت في سبيلها وكأنه يريد الحياة ويطلب المجد والخلود. ومن هذه المعتقدات إيمانهم بأن الله رب العالمين وخالق الكون العظيم والقادر على كل شيء.. يمدهم برضاه وبدعمه وتأييده، إذا ما آمنوا به والتزموا بتعاليمه وكلها حق وعدل وخير وفق ما جاء به الإسلام. ومن هنا يستمد المؤمن قوة معنوية هائلة وثقة بالنفس عظيمة تمكنه من أن يستصغر عظائم الأمور ولا يهاب الصعاب، بل وربما تلاشى المستحيل في نظره. وهنالك الإيمان بأن الله غفور رحيم يتيح المجال الفسيح للمخطىء والمذنب كي يتوب ويصلح نفسه. فباب الأمل إلى الخير للإصلاح واسع وميسور «وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل». وإذا لاحظنا أيضاً أن الإسلام قد أكد على المساواة والعدل بين الناس والغي التمييز العنصري.. وأعطى دعوته الجديدة ذات النكهة والطابع والطبيعة العربية أبعاداً عالمية وآفاقاً إنسانية، لأدركنا المدى الذي أراد الإسلام أن يبلغه العرب ويرتقوا إليه. وهو المدى البعيد الذي تجاوز إطار القبلية وحدود الجزيرة وهموم المادة وتأمين الحياة في مستواها العادي البسيط. **أجل لقد دفعهم إلى ما هو أسمى وأعلى وأقرب إلى المجد والخلود، وارتفع بآمالهم وتطلعاتهم نحو السماء والقيم الإنسانية الإيجابية الخالدة. هذا ومن المعروف أن الثقة بالنفس والاستعداد للعطاء والقدرة على**

التضحية تزداد وتشتد مع ضخامة الأهداف وسمو المبادىء. وكلما كانت هذه المبادىء والأهداف التي يؤمن بها الإنسان ضخمة وسامية كانت أقوى على تفجير طاقاته وحمله على الاندفاع والتضحية. وبما أننا سنتحدث عن هذه الآفاق والقيم الإنسانية في الفصول القادمة، فإننا نكتفي في هذه الفقرة بالإشارة إلى مثالين يوضحان ما نريد توضيحه عن دور المعتقدات الإيمانية في تثوير الطاقات الإنسانية والقدرات الكامنة في النفس البشرية.

١ ــ لقد سبق أن ذكرنا أن العربي يمجد الشجاعة والبطولة والتضحية في سبيل الحرية والكرامة، وقد أتى الإسلام ليعزز هذه التقاليد ويمدها بعقيدة جديدة تضاعف لديه القدرة على تحقيق هذه القيم وممارستها بسهولة ويسر، وذلك عندما ربط الموت في سبيل الإسلام وتعاليمه بدخول الجنة. وأصبح الاستشهاد سبيلاً للمجد والخلود والحياة الأبقى.. ولقد ورد في القرآن الكريم: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران: ١٦٩). وثمة آيات ترفع من منزلة الشهداء أو تجمع بينهم وبين الأنبياء والصديقين (النساء: ٦٩). وقال الرسول: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» بل إنه لم يحصر الشهادة في القتال دفاعاً عن الدين وإنما أعطاها معنى أوسع وأشمل. فعن أبي هريرة أن الرسول سأل قائلاً: «ما تعدون الشهيد؟ فقالوا: من قتل في سبيل الله. فقال الرسول (ص): إن شهداء أمتي إذاً لقليل»، «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[1].

٢ ــ أما المثال الثاني فهو تأكيده على فكرة القضاء والقدر وأن لكل إنسان أجلاً محتوماً وأن الحذر لا يدفع القدر. ولا شك أن عقيدة كهذه تدفع إلى الصمود والاستبسال في ساحات القتال: ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (يونس: ٤٩) ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا﴾ (آل عمران: ١٤٥).

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير، الجزء الثالث، صفحة ٣٣٨، أخرجه الترمذي وأبو داود.

ومما تقدم نخلص إلى القول: كان **لاعتقاد العرب المسلمين بالقضاء والقدر وبأن من يمت دفاعاً عن دينه وماله ونفسه وأهله يدخل الجنة، أكبر الأثر** في إقبالهم على القتال بصلابة المؤمنين بأن الله معهم والحق بجانبهم والمستقبل لهم وجنة الخلد مسكنهم. وهذا ما يفسر على صعيد الواقع والتحقيق معنى الآية ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (البقرة: ٢٤٩) وربما يزيدنا فهماً لمعنى الآية ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها..﴾ (التوبة: ٢٦).

دور الإسلام في دعم العروبة وجوداً ولغة وامتداداً:

□ دور الإسلام في حفظ العربية وتعزيزها:

لقد ظهرت قبل الإسلام حضارات عريقة كالأكادية والفينيقية والآرامية والنبطية.. أصبح لها لغات خاصة بعد أن كانت في الأصل لغة واحدة ثم أصبحت لهجات متباعدة، وأصبحت كأنها لغات منفصلة عن بعضها. **ولولا ظهور الإسلام وتوحيد القرآن للهجات في جزيرة العرب لزادت الفرقة والانقسامات القبلية ولتباعدت اللهجات لتشكل عقبة في طريقة الوحدة السياسية**، ذلك لأن اللغة هي أداة التفاهم والثقافة بين أبناء الأمة الواحدة، وهي الوعاء الذي يحفظ التراث والحضارة كما سبقت الإشارة. وهكذا، فالإسلام حقق للعرب وحدة العقيدة ثم الوحدة السياسية وعززها بتوحيد الثقافة والفكر عن طريق القرآن الذي **صان اللغة العربية وحفظ وحدتها وعزز وجودها ووسع انتشارها، حتى تجاوزت العرب إلى شعوب أخرى آمنت بالإسلام.**

ومع امتداد اللغة العربية إلى هذه الشعوب الإسلامية، امتدت إليها الثقافة العربية وتكونت لديها مشاعر التقارب والتعاطف مع العرب. كما أنها وسعت دائرة العروبة بين القبائل والأقوام الكثيرة التي عاشت في الأرض العربية على امتداد الوطن العربي الكبير، بعد أن أصبحت لهم لغة التخاطب والثقافة والعقيدة. وتعزيز اللغة العربية وتوسيعها كان أمراً طبيعياً لأنها اعتبرت من دعائم الإسلام ومستلزماته. وبهذا المعنى، يقول ابن تيمية: «فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنّة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب..» وقال: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه،

أما بعد: فتفقهوا في السنّة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي»[1]. وفي حديث آخر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا العربية فهي من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم».

ليس هذا فحسب، بل كان للقرآن وتعاليم الإسلام دور كبير وفعال في مواجهة المحاولات الخبيثة القديمة والحديثة التي استهدفت إضعاف اللغة العربية ومحاربتها، وبالتالي إضعاف الثقافة العربية والهوية القومية تحقيقاً لأهداف السيطرة والاستغلال والهيمنة التي سعت إليها القوى الأجنبية في القديم والقوى الاستعمارية في العصر الحديث. ويقول الشيخ عبدالحميد بن باديس في أحد أعداد مجلة الشهاب أن المستعمرين «علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء.. ثم يقول: قد فهمنا والله ما يراد بنا وأننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا»[2]. إنه **لولا القرآن والإسلام لتمكن الفرنسيون من إحلال اللغة الفرنسية محل العربية في أقطار المغرب العربي وصولاً لفرنسة هذه الأقطار** وإبعادها عن الجناح الشرقي للأمة العربية، ولا تزال هذه الأقطار تعاني من منافسة الفرنسية للعربية، **وتسعى جاهدة بل تخوض معركة في سبيل التعريب ودعم الاستقلالية والأصالة الوطنية**. هذا ومن المعروف «أن الاستعمار لم يخف حقيقة نواياه ولا طبيعة خططه التي ترتبط بكيفية أو بأخرى بذلك **المشروع المثلث الأطراف الذي يقوم على محاربة الإسلام واللغة العربية وتشويه التاريخ**» ومن المفيد هنا أن نشير إلى الدور العظيم والحاسم الذي اضطلع به الإسلام في أقطار المغرب العربي، حيث:

(أ) انتشر نتيجة طبيعته ومبادئه من جهة، ونتيجة وجود تقارب مؤكد بين العرب وسكان المنطقة في العقليات وأنماط الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك من جهة ثانية؛

(ب) أن اللغة العربية هي لغة الثقافة والتعليم والإدارة والتعامل الاقتصادي؛

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ص ٢٠٤.

(٢) مجلة الوطن العربي ١٣/٧/١٩٨٤، مقال للسيد محمد الميلي.

(ج) أن الأسر البربرية التي أقامت ممالك وإمارات في ظل الإسلام حكمت باسم الإسلام لا باسم أي تمييز عرقي، بل لقد لعبت دوراً أساسياً في نشر الإسلام وتعميم اللغة العربية. (فدور المرابطين والموحدين معروف في هذا المجال، مثلما هو معروف ـ وإن بدرجة أقل ـ دور صنهاجة وفروعها المختلفة وكذلك دور الزيانيين)؛

(د) انصهرت مجتمعات المغرب العربي في ظل الحضارة العربية الإسلامية بفعل ما أوجدته هذه من مبادلات واتصالات مع أنحاء العالم الإسلامي الشاسعة، انصهاراً يصعب معه معرفة العربي الأصيل من البربري الأصيل: فالأغلبية الساحقة من البربر تعربوا، وهناك أسر عربية استقرت في مناطق جبلية، أصبح أبناؤها يتحدثون اللهجة البربرية»[1].

أجل **لقد كان القرآن لغة وعقيدة، الدرع الذي تحطمت عليه سهام الجهل والتخلف، ومحاولات الاستعمار للفصل بين العروبة والإسلام، وخنق الروح العربية وطمس مقوماتها التراثية،** تثبيتاً لواقع التجزئة في الوطن العربي. **وكان القرآن أيضاً الحصن المنيع الذي صد المحاولات الخبيثة في تشجيع اللهجات المحلية** في الأقطار العربية لتطغى على العربية الفصحى، وتغدو هذه مع مرور الزمن غير صالحة للتفاهم المشترك، وذلك مثلما حدث مع اللغة اللاتينية التي انقسمت مع مرور الزمن إلى الفرنسية والإيطالية والإسبانية. ومن هنا كان علينا أن نحذر أشد الحذر من المحاولات المغرضة أو البريئة التي تطرح أحياناً لاستخدام اللهجات العامية وتشجيعها في الكتابة والشعر، وكذلك من تلك الادعاءات القائلة بعقم اللغة العربية أوبعجزها عن استيعاب مصطلحات الحضارة المعاصرة، وذلك لأن هذه المحاولات تعمق أوضاع التجزئة والإقليمية وتضرب التوجه الوحدوي في الصميم.

□ المسلمون كظهير للعرب:

إن الشعوب غير العربية التي اعتنقت الإسلام أصبحت تتعاطف مع العرب وتكن لهم مشاعر الود والتقارب بحكم العقيدة الدينية المشتركة، وراحت تساندهم وتناصرهم في قضاياهم القومية، كقضية فلسطين. وكان ذلك يتم بصورة عفوية

---

(١) من مقال للسيد محمد الميلي، مجلة الوطن العربي، العدد ٣٨٣، تاريخ ١٩٨٤/٦/١٥.
وقد أشار السيد محمد الميلي في سلسلة مقالات هذه المجلة إلى الأساليب الاستعمارية الخبيثة في محاربة وطمس اللغة العربية والعروبة في أقطار المغرب مستنداً إلى وثائق تاريخية مهمة.

وطبيعية من المواطنين العاديين، فتضطر الحكومات لمراعاة هذه العواطف الدينية والاستجابة لمشاعر الجماهير المسلمة. **ولذلك أو من أجل ذلك، أصبحت الأقطار الإسلامية غير العربية تشكل بصورة عامة ظهيراً وعمقاً استراتيجياً أو بعداً جغرافياً وسياسياً للأمة العربية، وباستثناء بعض الحالات والظروف التي كانت تدفع بالحكام في الأقطار الإسلامية المجاورة باتجاه العداء والخصومة** وبخاصة في إيران، وذلك لدوافع مصلحية ووطنية متعارضة مع العواطف الدينية المشتركة التي يحملها سواد الناس. وفي تقديري، لو توفر لدى الحكومات العربية الحد الأدنى من الإخلاص والوعي لأهمية هذا البعد الاستراتيجي والسياسي الذي توفره الشعوب الإسلامية للعرب، وأولته ما يستحق من العناية والاهتمام، لعززت هذه الصلة الروحية بعلاقات ثقافية واقتصادية، ولحققت بذلك خيراً عميًما للمسلمين العرب وغير العرب، يساعدهم على مجابهة الضغوط والمؤامرات الاستعمارية، وضمان المزيد من الاستقلالية والتقدم. ولكن الواقع هو أن مصالح الحكام الذاتية والقطرية وانشغالهم بالمحافظة على السلطة، قد طغت على كل شيء، ولم تترك لهم حيزاً من الجهد والاهتمام بمثل هذه الأمور التي تتجاوز هموم القطر وشؤون السلطة وتثبيتها.

وفي هذه المناسبة، لا بد من التنبيه للمحاولات الخبيثة والمغرضة من أعداء العرب والمسلمين، وللمحاولات الغبية على الأقل والرامية كلها إلى إثارة الشكوك وزرع الخلاف بين العرب والشعوب الإسلامية الأخرى، وذلك بتصوير العرب أصحاب ميول استعلائية أو تسلطية، وبإلباس القومية العربية نزعة عنصرية[1]، وبأنها تستهدف استغلال المسلمين غير العرب أو الهيمنة عليهم. إن محاولات كهذه ليست خاطئة وظالمة فحسب، وإنما قد تكون مغرضة ومشبوهة لضرب التعاون واستبعاد التضامن بين المسلمين العرب والشعوب الأخرى. **وعلى المسلمين أينما كانوا أن يدركوا أن العرب يحرصون على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في حياتهم وتراثهم طالما هو في الأصل ثورة العروبة وثروتها وطالما ينطلق من اعتبار المسلمين أخوة، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.** وعليهم أن يدركوا كذلك أن الوحدة العربية التي يتطلعون إليها ليست مجرد توحيد لإحدى وعشرين دولة عربية إسلامية يشكل توحيدها خطوة أساسية لتحقيق التضامن الإسلامي، وإنما في هذه الوحدة تعزيز للإسلام ومبادئه

---

(١) انظر: التصريحات الواردة في الملحق رقم (١).

ولنضال الشعوب الإسلامية كلها من أجل التحرر والاستقلال والتقدم، وبالتالي فإن المحافظة على الرابطة الروحية الإسلامية المشتركة، والعمل باستمرار على تعزيزها وتقويتها، وتحقيق التضامن الإسلامي، إنما يَصُب في مصلحة المسلمين العرب وغير العرب على حد سواء.

□ الحضارة العربية الإسلامية وهوية علمائها ومبدعيها:

لقد كانت الدولة العربية الإسلامية في صدر الإسلام ويوم لم يشترك فيها بعد أحد من غير العرب، هي الدولة العربية صاحبة العقيدة الجديدة، **ولكن اسم الدولة العربية الإسلامية بات يأخذ معنى آخر وبعداً جديداً في العصور اللاحقة، حيث أسهمت فيها شعوب أخرى غير عربية، فأخذت تعني المشاركة والتفاعل، وسلكت سبيل النضج والتكامل، والامتداد الأفقي والعامودي.** ومهما يكن من أمر، فإن تسمية الدولة الجديدة باسم الدولة العربية الإسلامية وتسمية الحضارة التي انبثقت عنها وتكاملت مع الزمن باسم الحضارة العربية الإسلامية، إنما كانت تسمية صحيحة معبرة، ولها ما يبررها في نطاق الواقع والتاريخ. **وظلت مؤشراً واضحاً على التلاحم بين العروبة والإسلام.**

وفي هذا المقام، لا بد من توضيح بعض الأفكار والآراءالخاطئةعن مفهوم الحضارة العربية الإسلامية، كاعتبار الأدباء والعلماء الذين ألفوا كتبهم باللغة العربية وتشربوا ثقافة العرب المسلمين واستوحوا منها، لا يمتون إلى الحضارة العربية الإسلامية بصلة، أو ينسبون إلى حضارة لا علاقة للعرب بها لمجرد أنهم ولدوا في خارج الوطن العربي، أو كانوا من أبوين أعجميين، أو لمجرد حملهم أسماء توحي بالأعجمية[1].

---

(١) انظر: عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان العربية في خراسان، جزءان، للدكتور ناجي معروف. ففي ص ٦٨، الجزء الثاني، يورد أسماء كثيرة عربية بصيغ أعجمية مثل ابن شيرويه القرشي، وابن شاذان الأزدي وساسان الخزرجي. وفي صفحة ٧٩، يذكر أن المؤلفات في خراسان وضعت بالعربية وأن البيئة هناك كانت بيئة عربية، ص ٨١. ويقول: «ندر أن نجد بين العلماء من كان يجيد اللسان الفارسي إلى جانب اللسان العربي الذي كان يحذقه جميع العلماء (ص ٨٧)، ويذكر عدداً من العلماء العرب المنسوبين إلى هراة في خراسان وإلى مدنها وقراها مثل ابن واتد الهروي الخراساني مع أنه عربي من بني حنيفة.

وانظر: الملحق رقم (٥) عن عروبة العلماء والكتاب المسلمين المنسوبين لغير العرب.

إن هذه الآراء المنطلقة من نظرة عرقية والتي تعطي لمسألة النسب الأهمية والأولوية، لا تنسجم مع النظرة العلمية الصحيحة التي تعتبر أن الإنسان في نتاجه ومحصلة أفكاره، مدين بالدرجة الأولى إلى بيئته الاجتماعية والثقافية، وإلى اللغة التي يستخدمها ويعتمد عليها، وإلى الدولة أو الأمة التي ينتمي إليها. وتأسيساً على ذلك نستطيع القول، أن كل الأدباء والعلماء الذين ولدوا في خارج الوطن العربي أو كانوا من أبوين أعجميين، ثم عاشوا في كنف الدولة العربية الإسلامية وتشبعوا بالثقافة العربية، وكتبوا بلغة العرب، وعالجوا مشكلات المجتمع وهمومه في هذه الدولة، **ومن ثم كانت آثارهم الأدبية والعلمية باللغة العربية، إنما هم كالعرب سواء بسواء، وقد استعربوا أي أصبحوا عرباً.** وربما نذهب أبعد من ذلك لنقول أن هؤلاء أقرب إلى العروبة وأنفع إليها وأعز لديها من العربي موطناً ونسباً إذا كان من الفئة الخاملة الكسولة، أو التي لا تضر ولا تنفع. ذلك لأن قيمة المواطن بالنسبة للأمة تقاس بما يقدم لها من نتاج فكري وعلمي، وهو ما نسميه بالمواطن الصالح. ولنأخذ على سبيل المثال سيبويه العالم النحوي المشهور الذي ولد في الأهواز على ما يرجح، ثم عاش في العراق وتتلمذ على أيدي الخليل بن أحمد الفراهيدي فإن من غير المؤكد معرفته للفارسية «ومن المرجح أنه يعرف طرفاً منها على الأقل»[1] ولكنه كان ضليعاً ومتبحراً في نحو اللغة العربية وقدم لها خدمة عظيمة. وكذلك بشار بن برد، فبغض النظر عن نسبه وعما له من ميول نحو الشعوبية والزندقة لأسباب لا مجال للتبسط بها هنا، فإنه يعتبر من الشعراء البارزين في الدولة العربية الإسلامية وابن ثقافته العربية، ولا يمكن أن ينظر إليه غير ذلك. **وشأنه شأن العربي المتعصب للماركسية في الوقت الحاضر فإن مهاجمته للقومية وللوحدة العربية وجهره بالولاء للأممية لا ينزعان عنه صفة العروبة ولا يفقدانه هويته القومية.** هذا وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن بعضهم كان ينقد الشعوبية ويمدح العرب وقد جرى ذلك على لسان جار الله محمود الزمخشري المفسر البلاغي اللغوي النحوي الأديب في مُفَصّله وعززه بمدح العرب في قصيدة حارة المشاعر رائعة البيان وهي في ديوانه. وفخر الفيلسوف الرياضي المؤرخ أبو الريحان البيروني الخوارزمي مثل فخره بالعرب، بل آثر الهجو بالعربية على المدح بالفارسية

---

(١) سيبويه، عمر بن عثمان بن قنبر: كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، صفحة ١٤، الجزء الأول.

وكلامه في هذا الشأن في كتاب الصيدنة[1].

وفي العصر الحديث لا يختلف اثنان على أن احمد شوقي أمير الشعراء من أبرز شعراء العربية من دون أن يعرف أو يتوقف أحد عند أصله ونسبه المركب من أب كردي وأم تركية ومن جدة تركية لأبيه وجدة يونانية لأمه. وأخيراً وليس آخراً، **لو اعتمدنا منطق النسب ومكان الولادة في تصنيف وتحديد الهوية القومية للأدباء والعلماء لقادنا ذلك إلى اعتبار أغنى دولة بهم في العصر الحاضر، وهي الولايات المتحدة الأميركية، من أفقر دول العالم،** لأن معظم علمائها هاجروا إليها من خارجها ولم يكونوا من أصل أميركي في الولادة والنسب بل في المعيشة والثقافة والرعاية والولاء، ولكن هذا كان كافياً لحمل شعوب العالم على اعتبارهم أمريكيين، لأن هؤلاء العلماء لو ظلوا في أقطارهم التي هاجروا منها لما سمحت لهم ظروف معيشتهم وبيئتهم أن يسلكوا طريق العلم والابداع والعطاء بالشكل الذي وفرته لهم البيئة الأميركية من دعم وتشجيع ووسائل وتسهيلات ضخمة تقدم عادة لذوي المواهب والكفاءات العلمية.

□ □ □

---

(١) ذرائع العصبيات العنصرية في إثارة الحرب، محمد بهجة الأثري، ص ٢٣، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٨١.